وقفة تحليليّة لقصة

« شمس وفنارات ليل وارجوحة »*

لموسى كريدي**

* نشرت في جريدة الجمهورية (صفحة آفاق) في عدد يوم السبت ٢١ / ٧ / ١٩٨٤ م . واعيد نشرها في مجلة « الاقلام » ع ١١ لسنة ١٩٨٥ م مع مقالة د . صبري مسلم الموسومة بـ«المهادالشعبي والانساني في « شمس وفنارات ليل وارجوحة » ٤ ـ ٨ .

** موسى كريدي :

أحد ادبائنا اللامعين في العراق . ففضلاً عن كونه قاصّاً مبدعاً . فهو مقاليّ أيضاً . وشاعر . وفيما يأتي شيء من ترجمته :

- الولادة / النجف / ١٩٤٠
- تخرّج في كلية الاداب / جامعة بغداد / ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ م .
- عمل مدرساً للغة العربية ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ م .
- انتقل للعمل في وزارة الثقافة والاعلام منذ العام ١٩٧٠ .
- تولى رئاسة تحرير مجلة الكلمة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٤ م .
- عمل مديراً عاماً بالوكالة لدائرة الشؤون الثقافية .
- نشر دراسات ومقالات في الادب والنقد والثقافة العامة .
- بدأ شاعراً في اوائل الستينات حيث نشر عدة قصائد في عدد من الصحف المحلية الا انه اتجه نحو كتابة القصة القصيرة حتى عرف بها كاتباً قصصياً منذ منتصف الستينات ..

  اول قصة قصيرة نشرت له كانت في عام ١٩٦٤ جريدة الانباء الجديدة / بغداد :
- عاد الى كتابة الشعر بعد منتصف الثمانينات لاسيما الشعر الحر غير ان هذا لم يمنعه من كتابة قصائد نثر كما لم تمنعه حماسته لقصائد النثر من العودة الى كتابة القصيدة العمودية لكن باطار جديد .
- نشر نتاجه الابداعي في الصحف والمجلات العراقية والعربية منها،الكلمة ،والآداب ،والاقلام ،والاديب المعاصر ،والمثقف العربي ،والف باء .
- تناول نتاجه الأدبي عدد من النقاد بينهم . د . علي جواد الطاهر .. فاضل ثامر . ياسين النصير . شجاع العاني .
- يتولى رئاسة تحريرع سلسلة الموسوعة الصغيرة منذ عام ١٩٧٨ حتى الآن وهذه السلسلة تصدرها دائرة الشؤون الثقافية / وزارة الثقافة والاعلام وهي تتناول مختلف العلوم والفنون والآداب .
- مؤلفاته المطبوعة

١ ـ اصوات في المدينة (قصص) ـ بيروت ـ ١٩٦٨

٢ ـ خطوات المسافر نحو الموت (قصص) النجف ١٩٧٠

٣ ـ غرف نصف مضاءة ط ١ ٩٧٩ ط ٢ ١٩٨٦

٤ ـ فضاءات الروح بغداد ١٩٨٦

٥ ـ الرسم والكتابة (مقالات نقدية) ١٩٨٩

اعمال مخطوطة

١ ـ موت البيضاء (شعر)

٢ ـ منزل في ضاحية (قصص)

٣ ـ رواية ...

لايختلف قارئان محللان في أنّ هذه القصة قد عنيتْ بتصوير ملامح من طفولة كاتبها ، وأترابه ، ومدينته ، وبعض سكانها ، على نحو من الاحتفال بهذا التصوير ، والتلذذ بذكره ، والتغني بذكرياته ومحاولة اثارة متلقيه عاطفياً ليكون شاهداً على حلاوة تلك الأيام ، منفعلاً بها ، محتفظاً بما تتركهُ فيه عواطفها النبيلة من سمو انساني يساعدهُ على تثبيتها ، او دوام أثرها الى أطول وقت ممكن .

وهذا النوع من القصص يعدّ لوناً من ألوان السيرة الذاتية لكاتبها ، وإن انكر بعضهم ذلك . اذ يمكن للناقد أن يقف على صورٍ تقدم ملامح من شخصية الكاتب ، او نشأتهِ ، أو بيئته ، أو انفعالاته العاطفية ، أو غير ذلك .

في هذه القصّة يتعرف القارىء شخصيات مختلفة : أطفالاً ، وشباباً ،رجالاً ، ونساءً إلّا أنه يتعرف ممسوساً أيضاً يعدّ محور القصة كلها ، أو الشخصيّة الرئيسة فيها ، لأنّ القصّة تنتهي حالماً تنطفي حياة ذلك الممسوس (هوبي) .

لكنّ القاص وإن جعل (هوبي) محور قصته إلّا أنهُ ايضاً جعل الأطفال جميعاً يشكلون المحور الثاني الموازي للأول ، بمعنى أن المحور الأول لاوجود له بغير الثاني ، وإن كان بالامكان وجود المحور الثاني من غير وجود الأول .

يتسلّم القارىء هذه القصة عن طريق الراوية ، وهذا الراوية هو أحد الأطفال الذين يشكلون القسيم المعادل لهوبي محورياً ، غير أن هذا الطفل هو في ذات الوقت مؤلف القصة ، وقائد حركتها ، وصانع أدق تفاصيلها .

وفضلاً عن شخصية (هوبي) والأطفال فإنّ ثمة شخصيات اخرى تسهمُ في تكوين البناء الفني العام للقصة ، مثل : أبو طالب الخصاف ، وحليحل السقاء ، وأم هوبي ، وأم سعيد ، وزهرة بائعة الحليب ، وحمد بائع الكعك ، وغيرهم .

إن جميع تلك الشخصيات كانت شخصيات مسطّحة ، أي عادية غير نامية ، لأنّ القصة لم تكن لتهتمّ ببناء الشخصيات بقدر ماكانت تريدُ تاريخ مرحلةٍ من مراحل

كاتبها . وتصوير الأجواء التي عاش فيها . وتسجيل ماكان للبيئة من تراث شعبي على نحو تلقائي غير مباشر .

ان تلك المرحلة كانت مرحلة الطفولة بعوالمها المتشابكة المتناقضة . لكنها مع ذلك كانت مرحلة البراءة التي تقتنع بانّ التقاطع في الحياة شيٌ طبيعي . فعلى الرغم من أن تلك البيئة كانت تبدو سعيدة من خلال عوالم الاطفال . ومرحهم . واشراقهم . إلّا أنها كانت أيضاً تتشحُ بمسوح الحزن . وتتعطر بألوان من العبير الروحاني المقدّس .

فالمدينة هذه مدينة قباب زرق فيها أوسع مقبرة على الاطلاق . يزورها الناس دائماً . ويحلّ بها البدو في كلّ عام . فتبرك جمالهم في (المناخة) حين تصل اليها متعبة من البادية . وسكانها يمتهنون مختلف المهن . ففيهم الخصاف . والسقاء . وبائع الكعك . والعرّافة . وغيرهم . لكنّ أهم مايميزها هو مقبرتها الكبيرة التي كانت تبدو مملكة لهوبي الممسوس . فهي مكان راحتهِ . ومأواه حين يغيب عن الانظار . ودار نداماه . يحتسي فيها العرق . ويكلم الموتى . ويتشكى . ويتوجّع . ويتبرّم . ويغضب . ويشتم .. إنها عالمهُ الذي يحاول الأطفال مشاركته فيه . لكنّ سراديبها كانت وقفاً عليه . أماهم فهي مكان مغيّب للآخرين .

في هذه المدينة . وفي مقبرتها تجري حوادث القصّة . وتتلخص في أنّ هوبي الممسوس كان يبيعُ دمه لقاء دريهمات معدودة يشتري بها « العرق » . لكنّ الأطفال الذين كانوا يشاكسونه لم يكونوا على دراية بالأمر . على الرغم من أنّهم لاحظوا شحوباً في وجهه . وقلة في أكله . لكنّ زهرة بائعة الحليب فضحت السر حين أعلمتهم أنّ هزال جسمه . وتغير لون وجهه لم يكن بسبب شربه للعرق . انما كان بسبب مااعتاد عليه من بيع دمهِ للمرضى الراقدين في المستشفيات . ولما لم يكن باستطاعة أحد فعل شيء انطفأت حياة هوبي . من غير ان تحصل على قنينة واحدة من الدم تجدد فيها الاضاءة . وتمنع عنها الانطفاء .

ان القصة قادتنا الى المفارقة من غير تدخل قسري . فهوبي الذي كان يمنح دمه الحياة للآخرين لم يجد من يمنحهُ الحياة . وحين وصل الفتى المتبرع بدمه كان الوقت قد ازف . ولات ساعة مندم .

في هذه القصة طغى السردُ على ماسواه ، لأنّ الضرورة أقتضت ذلك . فالراوية يعتمد عليه في تقديم الصور ، والأحداث ، والزمن . وهو سردٌ يعنى بالصور المتلاحقة لتكوين اللوحة ، فإذا تّم للقاص ذلك انتقل من ذلك المجال الى غيره ، اما اذا وُجد ان الصور تحتاج الى كشف اكثر التفت الى دقائق الاشياء فحركها، وصولاً الى تحقيق غايته . خذ مثلاً وصفهُ لهوبي ، فستجد أنّه يعنى بالتفاصيل التي يريدها القارىء ، وتركها يؤدي الى قصور في السرد : « نظرنا اليه ، فتى ، اشعث ، قصير الأطراف ، بديناً ، اذناه كبيرتان ، تتحركان منتصبتين بنبض ظاهر ، تتوسط مثلث ذقنه نقطة وشم زرقاء ، عيناه سوداوان واسعتان ، إذا اقتربنا منهما رأينا أنفسنا في بؤبؤيهما صغاراً جداً ، لكنه سرعان ماينهرنا بنفخة منه في وجوهنا فنهرب عنه لندور مرّة اخرى خلف الشجيرة ... » في حين أنّه لايعنى بذلك إذا وجد الصورة قادرة على تأدية ماأنيط بها من حركة . على أنه يعود بين الفينة والفينة الى التفصيل في الصورة اذا أحسّ أنها تحتاجُ اليه ، كما فعل حين فصّل في صورة البحث

عن هوبي : « قطعنا التل ، هبطنا كمن يزحف ، زحفنا فعلاً نحو جحر حجري لاح كالكهف غائراً في عمق أمتار داخل الارض ، ولاح المكان كالبرج يتصدره باب عريض ، باب كامد من الخشب رصع بدوائر من نحاس ، النحاس فقد بريقهُ،الخشب تخزم فتساقطت منه بقايا صدأ ، ولكعات من الحناء الصقت كالأصابع وبرزت بشكل يلفت النظر ... »

وهذا يدلل على وعي المبدع من ناحية ، وقدرته في الرسم بالكلمات من ناحية ثانية .

ومثلما كان هوبي يتوازى مع الاطفال ، كان غناء الاطفال يتوازى مع الألعاب الشعبية ، ففي الأغنية التي ردّدها الأطفال مقاطع تعبر عن الحالة بذكاء « وبهذا لاتبدو هذه الاهزوجة الشعبية طارئة على القصة ، أو منفصلة عن بنائها العام واجوائها . فقد أدت المقاطع الغنائية في هذه القصة دور تأصيل عنصر المكان والشخصيات ، وأوحت بالجو الشعبي ، وبيئة المحلة الشعبية ، وكان القاص الفنان وراء المعاني التي ضمّنها مقاطعهُ الشعرية ، بحيث كانت تلك المعاني ذات صلة وثيقة ببناء القصة ، وتقنيتها عامة . »(١) كما أنّ الالعاب التي مارسها الأطفال قد كشفت هي أيضاً عن جوانب من

---

(١) د .صبري مسلم « المهاد الشعبي والانساني في شمس وفنارات ليل وارجوحة » مجلة « الاقلام » ع ١١ ، ١٩٨٥ ، ٦ .

التراث الشعبي للمحلةالتيعاش فيها الراوية ، اذ بينت عدداً من الألعاب الشعبية التي كانت سائدة آنذاك مثل : الختيلة ، وسمبيلة السمبيلة ، وشبي ياحيدر ، والنوى مشمش ، وغيرها . فضلاً عن أنّ القصة قد سجلت بعض ماكان من ولع الاطفال ببعض االحلوى الرخيصة التي يصنعها الباعة خصيصاً للأطفال الفقراء ، الى جانب ولعهم ببعض االفاكهة الرخيصة . فقد أشارت القصة الى « حبات الرمان » و « الخرّيط » و « الديري » . وهذا دليل آخر على أنّ القاص كان واعياً حين استثمر تلك الأغاني والألعاب والحلوى الشعبية في تقديم صورة الممسوس المؤطرة بخيال القاص الحاذق ، وجعلها تسير مع الاطفال متوازية غير متقاطعة ، مما اكسب القصة القدرة على الاثارة .